القرآن كمصدر تشريعي في رأي المستشرقين

للدكتور / عجيل النشمي

لقد تركزت بحوث المستشرقين حول القرآن الكريم وتناوله اغلبهم بالطعن من جوانب عديدة في لفظه ورسمه وتلاوته واحكامه واخباره وطريق تنزيله وثبوته والاحكام المستنبطة منه الى غير ذلك .

ولسنا هنا في معرض استقصاء ما دونوه والرد عليه . وانما حسبنا ان نقف على تصورهم للقرآن الكريم كمصدر من مصادر التشريع الاسلامي ودوره في بلورة الفقه ، وتقييم ذلك على ضوء ما قرره علماء اصول الفقه

والوقوف على هذا يستلزم حتما الوقوف على تصورهم للقرآن الكريم على وجه العموم من جانب ، والنتيجة التي راموا التوصل اليها من جانب آخر ، لأن النظر في القرآن كمصدر للتشريع فرع هذا التصور العام .

التصور العام للقرآن :

أ ـ ثبوت القرآن : ينظر المستشرقون الى القرآن الكريم على انه نسج محمد صلى الله عليه وسلم وتأليفه عن طريق الوحي المزعوم والذي هو عبارة عن احلام ورؤي واوهام ـ حسب افترائهم ـ وانه في بدايته كان عبارة عن افكار وأمثلة تصور الحياة الاخرة ـ ونتيجة لهذا حارب الشرك ودعى الى توحيد الله وحسن عبادته للفوز بالدار الآخرة .

وقد كان متأثرا في سيرته هذه بالمصادر الخارجية من حوله .

هذا التصور المشوش عن القرآن الكريم تجده مسطرا في كتبهم ويتناقلونه آثما عن آثم خاليا من ادنى نظرة علمية مجردة .

وهذا قول احد كبرائهم يكشف عن هذا التصور فيقول :

لما بلغ محمد (صلى الله عليه وسلم) الاربعين من عمره ، اخذ يقضي وقته على ما تعود في الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة ، حيث كان نهبا للاحلام القوية والرؤي الدينية ، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئا فشيئا ليذهب الى قومه منذرا اياهم ما يؤدي بهم ضلالهم من الخسران المبين ، وبكلمة واحدة ، احس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه الى أن يكون مربيا لشعبه اي « منذره ومبشره ».

ويعبر الكاتب عن نفس الفكرة فيقول : وفي خلال النصف الاول من حياته اضطرته مشاغله الى الاتصال بأوساط استقى منها افكارا اخذ يجترها في قرارة نفسه ، وهو منطو في تأملاته اثناء عزلته ، ولميل ادراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمح فيها اثر حالته المرضية ، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والاخلاقية لقومه الاقربين والابعدين . وفي بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها الى الخارج في شكل امثال مضروبة للحياة الاخرى كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوما بعد يوم ، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الاساسية التي بني عليها تبشيره ، وما سمعه او عرفه يوم الحساب ، الذي سيقع يوما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الامور التي يراها حوله ، والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازا .. وهكذا اسس محمد (صلى الله عليه وسلم) دعوته على التوبة والندم والخضوع والاسلام الى تمثيلات تتعلق باليوم الآخر قبل كل شيء . وحالة الادراك هذه كان من نتائجها ، لا من اسبابها ، ان نبذ محمد (صلى الله عليه وسلم) الشرك الذي حطت عقائده من شأن القدرة الالهية التي لا حد لها ، ووزعتها بين آلهة متعددين ..

ثم يقول : اذا ما كان يبشر به خاصا بالدار الآخرة ليس الا مجموعة موارد استقاها بصراحة من الخارج يقينا واقام عليها هذا التبشير ، لقد افاد من تاريخ العهد القديم ـ وكان ذلك في اكثر الاحيان عن طريق قصص الانبياء ـ لِيُذكِّرَ على سبيل الانذار والتمثيل ، بمصير الامم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين ارسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في طريقهم ، وبهذا انضم محمد (صلى الله عليه وسلم) الى سلسلة اولئك الانبياء القدماء بوصفه آخرهم عهدا وخاتمهم .

ويحاول التوصل الى نفس النتيجة وهي الطعن بقطعية ثبوت القرآن الكريم بأسلوب وطريقة اخرى ، حصرها في وجوه ثلاثة ، سنذكرها تباعا ونناقشها ونرد عليها .

● **الوجه الاول** : تخليط الشيطان على النبي صلى الله عليه وسلم

فيقول : « ان اول مصادر الشرع في الاسلام واكثرها قيمة الكتاب ، وليس هناك من شك في قطعية ثبوته وتنزهه عن الخطأ على الرغم من امكان سعي الشيطان لتخليطه سورة الحج الاية ٥١ و « الكاتب هنا في غاية الدهاء فهو حين يقرر قطعية ثبوت القرآن ابتداء ، ينفيها على الفور بزعمه امكان وسوسة الشيطان على النبي صلى الله عليه وسلم فيسبق لسانه سهوا او غلطا فينقل عن الله خلاف ما اراد . وهو يريد استغلال ما ذكره بعض المفسرين في قوله تعالى في سورة الحج « **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم** »الآية٥٢الحج .

فقد ذكر بعض المفسرين ان سبب نزول هذه الآية ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى تولى قومه عنه ، وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به ، تمنى في نفسه ان يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على ايمانهم ، فجلس ذات يوم في نادي من اندية قريش كثير اهله ، واحب يومئذ ان لا يأتيه من الله تعالى شيء ينفرون عنه ، وتمنى ذلك ، فأنزل الله تعالى سورة « **والنجم اذا هوى** » فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ « **افرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى** » النجم ١٩/ ٢٠ القى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ، ويتمناه « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته ، فقرأ السورة كلها ، وسجد في آخر السورة ، فسجد المسلمون بسجوده ، وسجد جميع من في المسجد من المشركين ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد . وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا ، وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا : قد عرفنا ان الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فان جعل لها محمد نصيبا فنحن معه ، فلما امسى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاه جبريل عليه السلام فقال : « ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله سبحانه ، وقلت ما لم اقل لك » فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا ، وخاف من الله خوفا كبيرا فأنزل الله تعالى « **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته** ».

هذه هي القصة التي اراد ان يشير ويستند عليها ، وليس له فيها متعلق ولا تصلح دليلا لنفي قطعية ثبوت القرآن الكريم .

فقد فند العلماء منذ القديم هذه القصة وابطلوها من عدة نواح ، ذكرها الاستاذ امين الخولي وضمنها رده على Schacht في تعليقه على كتابه اصول الفقه فذكر أن العلماء **نقدوها من جهات** .

★ ـ نقدوا سندها نقدا مرا اذ سئل عنها محمد بن اسحاق فقال هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتابا ، وابن اسحق نفسه قد قيل في الثقة به ما قيل ، فكيف بما يعده هذا المصنف من وضع الزنادقة ؟ كما قال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم اخذ يتكلم في ان رواة هذه القصة مطعون فيهم ، وقد روى البخاري في صحيحه انه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم ، وسجد فيها المسلمون والمشركون الانس والجن . وليس فيها حديث الغرانيق . كما قال ابو حيان في تفسيره « وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثة شيء مما ذكروه ، فوجب اطراحه ، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه ، وكذلك قال في توهين سند هذه الرواية القاضي عياض ، وابو بكر بن العربي وغيرهم ، كل هذا الى جانب ان المروي فيها مرسل ـ اي سقط من سنده من بعد التابعي ، والجمهور يتوقف عن الاحتجاج به وحسبنا ذلك من طرق نقد سند هذه القصة :

● **كذلك نقدوها من نواح مختلفة ، منها** :

★ ـ مناقضتها القرآن من مثل قوله تعالى « **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين** » ، الحاقة ٤٤ ـ ٤٦ وقوله « **وما ينطق عن الهوى . إن هو**

الا وحي يوحى » النجم ٣ ـ ٤ والعجب ان هذه الآية في صدر السورة التي يحكي ان التخليط كان فيها . وقوله « **قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما يوحى اليّ** ». ١٥ يونس .

★ ـ نقدها بمناقضة اعتبارات عقلية محضة لا تتوقف على مسلمات دينية ، ثم من تلك الاعتبارات ما هو عقلي صرف ومنها ما هو تاريخي ومنها ما هو ادبي . فالعقلي الصرف ، انها ليست الا خبر واحد ، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة . ثم من الاعتبارات التاريخية ملاحظة ان الرسول بمكة ـ حيث تروى القصة ـ لم يتمكن من القراءة والصلاة عند الكعبة ولا سيما في محفل غاص ومنها أن معاداة المشركين الرسول كانت اكبر من ان يغتروا بهذا القدر فيخروا سجدا قبل ان يقفوا على حقيقة الامر .

★ ـ ومن الاعتبارات الادبية ما يسوقه القاضي عياض بقوله « **ووجه ثان** ، وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا ، وذلك ان الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام ، متناقض الاقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن لا يخفي عليه ذلك ، بل هذا لا يخفي على ادنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ». وهذا القول يوضحه النظر في السياق من سورة النجم وانه تعييب للآلهة وحط من شأنها « **ان هي إلا أسماء سميتموها انتم وأباؤكم ما انزل الله بها من سلطان إن يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** » النجم ٢٣ « فكيف يقحم قبل هذا قوله « **تلك الغرانيق العلي ، وان شفاعتهن لترتجى** » وكيف يوضع هذا وسط ذلك السياق ، فيسيغه المشركون ، بل يعجبون به ويطربون له ، ويسجدون مع النبي ويشاع اسلامهم جميعا وفي المقام بعد ذلك نفى الله لشفاعة الملائكة في قوله « **وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى** » النجم ٢٦ فكيف ترتجى شفاعة اصنامهم حين تنفي شفاعة الملائكة على هذا النحو ، وكيف يتلاءم هذا في المزاج الادبي لاساطين القول ، الذين تحدوا بالقرآن ، بل لأي عربي .

ومن الاعتبارات الادبية التي ينقد بها متن تلك القصة كذلك ، ما ساقه الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله ـ في بحث له قيم الم فيه بطائفة من نقد القدماء ، ورفض القصة ، وفسر آية الحج هذه بما يستقيم دون اتصال بالسبب المزعوم في نزولها ، ولذلك الملحظ الادبي الناقض لمتن تلك القصة هو : ان العرب لم يرد في نظمها ، ولا في خطبها ، ولا نقل عن احد بطريق صحيح ، انها وصفت الهتها بالغرانيق ، وليس من معاني الكلمة شيء يلائم صفة الآلهة والاصنام حتى يطلق عليها في القرآن .

فتلك الاعتبارات الادبية وحدها ، دون نظر الى شيء وراءها ، مما لا يليق ان يهمله من رجح حلمه ، واتسع في فقه اللغة علمه ، حتى يحتج بعدها وبعد غيرها من قوى النقد بآية الحج المذكورة على امكان سعي الشيطان لتخليط القرآن . وتلك كلها مظاهر النقد في الاسلوب القديم ، فكيف بدقة الاساليب الغربية الحديثة .

على انك ان تهدر ذلك كله ، وتقبل مع الاستاذ Schacht قصة الغرانيق ، فلن تجد بذلك ، الطريق للاستشهاد بآية الحج ٥٢ على امكان سعي الشيطان لتخليط القرآن . نعم تكون القصة وحدها شاهدا على وقوع هذا مرة على النحو الذي ترويه ، وتكون سببا للنزول له اثره في تفسير الآية ، لكن الآية مع ذلك كله لا تكون شاهدا على هذه الدعوى ، في امكان سعي الشيطان لذلك ، **لوجوه** :

● ـ ان الآية ـ على ان هذا سبب النزول ، وعلى فرض تخليط الشيطان على الانبياء ـ ليست حديثا عن تخليط حصل لنبي الاسلام ولا فيها اشارة اليه ، والى هذا يشير ابو حيان ـ في الموضع السابق ـ اذ يقول « وهذه الآية ليس فيها اسناد شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما

تضمنت حالة من كانوا قبله من الرسل والانبياء ، اذا تمنوا فليست الآية دليلا ـ في حساب البحث العلمي ـ على تخليط خاص بالقرآن ».

ولا يفوتك أن تلاحظ ان الآية تقول « **وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي** » فتعمم ، ولكن الكاتب يخص القرآن بامكان سعي الشيطان لتخليطه ، وذلك ما نمسك عن تعليله .

● ـ ان معنى الآية ، مع تسليم هذا السبب وتوجيه تفسيرها بمقتضاه ، انما هو ان ما يقع من تخليط الشيطان مؤقت ، لا يلبث ان ينسخه الله . ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم ، فهو امكان مؤقت لا يترك اثرا ، فلا يتجه مع هذا الاستدلال بالآية على امكان التخليط .

الوجه الثاني : نسيان النبي صلى الله عليه وسلم

فيقول : « كما انه ليس من شك ايضا في انه وصل الينا ـ اي القرآن ـ من غير تحريف ـ على الرغم من نسيان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعدد من آيات الكتاب ، سورة البقرة الآية ١٠٠ وسورة الاعلى الآية ٦ وما بعدها ».

فيزعم هذا ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله عز وجل ينسي بعض ما يبلغ به ، ويستنتج ذلك من الآية التي اشار اليها وهي آية البقرة رقم ١٠٦ وليس ١٠٠ وهي قوله تعالى « **ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير** » . البقرة ١٠٦ وقوله تعالى « **سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفي** » . الاعلى ٦ ـ ٧

والكاتب هنا يلقي الزعم على عواهله دون بيان او تفصيل ، وكأن الامر مسلم ومقرر في تصوره ، والامر ليس كذلك عند التدقيق ، وليس له مستند يقوى على تثبيت تلك الدعوى وسنبين فيما يلي مدلول الايتين لنقدر على الحكم على صحة او خطأ المدعي .

اولا : قوله تعالى « **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير** ».

لقد فسر بعض المفسرين كلمة « آية » بالمعجزة كالشيخ محمد عبده ومحيي الدين بن عربي استنادا الى فاصلة الآية ، « فان ذكر القدرة والتقرير بها لا يناسب موضوع الكلام ونسخها ، وانما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة .

وعلى هذا تخرج الآية عن محل الاستشهاد فلا تكون دالة على النسيان .

ثم يقال له ايضا : ان كلمة « ننسها » فيها احدى عشرة قراءة ، وفيها معاني عدة فقيل يراد بها التأخير ، او الترك او النسيان ، ومع هذه الاحتمالات لا يصح التمسك والانتصار على معنى واحد هو النسيان كما ذكره الكاتب .

وحتى على فرض ان المراد منها النسيان فقط ، فيمكن القول ، انها ليست شاهدا مطلقا على دعواه ان النبي صلى الله عليه وسلم نسي آيات ، واخل هذا بصيانة الكتاب عن التحريف ، لأن الكلام في انساء الله اياه ، لا في نسيانه هو ، وانساء الله له الآية كعدم ايحائها ، وهو بالنسيان بعد ذلك يؤدي رسالته ، اما لو اراد الله ابلاغها فنسيها ولم يؤدها فهذا هو المحرف للوحي ، وليس هو المذكور في الآية : الا ان يتحكم في اختيار قراءة بعينها ويرفض ما عداها ولو لم تكن من القراءات القوية ، على انه ان يرد ذلك فسنسايره ايضا **فنرى** :

● ـ انه على ابعد التنزل والمسايرة ، ومع فرض قصر الكلمة في الآية على « تنسها » بتاء الخطاب وهو ابلغ ما يطمع فيه المستشهد ، على هذا كله لا تشهد الآية لا على وقوع النسيان ، ولا على الاخلال بصيانة الكتاب عن التحريف .

اما انها لا تشهد بوقوع النسيان فعلا ، فلأن الكلام على صورة الشرط **ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير** ـ وكل ما تفيده حصول الجواب ان حصل الشرط ، لا وقوع الشرط فعلا ، فكلمات الشرط تدخل على المستحيل مثل : **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** الانبياء / ٢٢ **لئن أشركت ليحبطن عملك** الزمر / ٦٥ ، خطابا للنبي ونظير هذا ان تقول ، ما ينصف الاستاذ

يصل الى الحق ، تريد وقوع هذا بوقوع ذاك وليس من معناه وقوع الانصاف من الاستاذ فعلا ، وهذا الملحظ قديم اورده المفسرون .

ـ **فمعنى الآية على هذا** « إن تنس تلاف الله نسيانك ».

وأما ان الآية لا تشهد بشيء من الاخلال بصيانة الكتاب عن التحريف فهو ان الله يحدث انه مراقب الرسول مشرف على الحال ، مبدله بما ينساه خيرا منه ، فهو عالم بنسيانه ، مغتفر له اياه ، معوض له عما ينسى ، فالآية على عكس ما يريد الاستاذ شاهدة ـ بفرض ان هذا تفسيرها وعلى كل هذا التنزل والتسليم ـ على عناية زائدة بمراقبة التبليغ ، واصلاح شأنه فكيف جعلها الكاتب شاهد نسيان وتحريف ..

ثانيا : قوله تعالى « **سنقرئك فلا تنسى . الا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفي** »الاعلى /٦ ـ ٧ . فقد فسر النسيان كذلك بمعنى ترك العمل ، فالمعنى انه لا يترك العمل الا بما شاء الله ترك العمل به فينسخه ـ وبهذا تخرج الآية من موضوع احتجاج الكاتب ، وان ابي إلا قصرها على معنى النسيان ، فالاستثناء منه ـ الا ما شاء الله ـ قد فسر بأنه استثناء غير حقيقي ، وذلك لأوجه ، منها :

★ ـ ان الاستثناء انما هو لاظهار قدرة الله ، وان عدم نسيان الرسول منحة من الله له وتفضل يؤيده به ، ولهذا المقام نظائر قرآنية ، اريد فيها بيان قدرة الله ، وعدم مشيئة الله وقوع الامر المقدور ، المؤثر على مهمة الرسول وشخصيته ، مثل آيتي الاسراء « **ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك . ثم لا تجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا** »الاسراء /٨٦ ، ٨٧ مع القطع بأن الله لم يشأ ذلك ، ومثل أية الزمر « **ولقد أوحى إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ». الزمر ٦٥ ومحال ان يشرك النبي « صلى الله عليه وسلم ».

★ ـ ان هذا الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في اسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، فهو استثناء صلة في الكلام وليس ثم شيء اريد اخراجه ، وشواهد هذا الاسلوب القرآني قوله عن أهل النار « **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** » وقوله في اهل الجنة « **خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** » هود /١٠٧،١٠٨ . ولعل منه كذلك قوله « **قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله** » الاعراف /١٨٨ .

الوجه الثالث : وقوع النسخ في القرآن الكريم .

فيقول : ولا يتعارض مع حجية القرآن القاطعة كذلك ان بعض آياته المتأخرة تنسخ ما قبلها ، سورة البقرة اية ١٠٠ وسورة النحل اية ١٠٣ وما بعدها ، وكان هم المفسرين المتأخرين التخلص من المتناقضات العديدة الواردة في القرآن والتي تصور لنا تدرج محمد في نبوته ، اما بما عمدوا اليه من التوفيق بينها ، واما بالاعتراف بأن الآيات المتأخرة تنسخ ما قبلها ، وذلك في الحالات التي يشتد فيها التناقض بين تلك الآيات .

والكاتب هنا لم يحرر معنى النسخ ولم يبين وجه التعارض والتناقض واكتفى بالاشارة الى آية النسخ السابقة وآية النحل في قوله تعالى « **ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** » النحل /١٠٣ .

وهذه الآية الثانية مقحمة على دعوى النسخ ، وليس محل الاستشهاد ـ الدقيق ـ بها هنا ، وانما اراد بها فقط ان يؤازر دعوى الملحدين القدامى في دعواهم ، ونكتفي برد الآية ذاتها المفحم على هذه الدعوى .

اما الآية الاولى فهي التي تستحق منا وقفة نكشف فيها عن وجه الصواب الذي حاد عنه الكاتب في فهم معنى النسخ .

فلقد تعددت تعريفات العلماء لمعنى النسخ في الاصطلاح الشرعي :

فعرفه الامام الجصاص بأنه : **اطلاق الشرع بيان مدة الحكم والتلاوة وعرفه الامام** البيضاوي بأنه : « **بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه** ».

وعرفه ابو بكر الباقلاني بأنه « **الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتا مع تراخيه عنه** ».

وعرفه فخر الدين الرازي بأنه « **طريق شرعي يدل على ان الحكم الذي كان ثابتا بطريق شرعي لا يوجد بعد ذلك ، مع تراخيه عنه على وجه لولاه لكان ثابتا** » وعرفه ابن الحاجب بأنه « **رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر** » .

هذه هي حقيقة النسخ ولسنا في حاجة الى تفصيل هذه التعاريف من ناحية اصولية فنية انما يكفينا انها في جملتها تعني ان الله شرع حكما ما ثم رفعه ونسخه وابدله بحكم آخر غيره بما يناسب التدرج التشريعي الذي هو صفة من صفات التشريع الاسلامي .

والسؤال الموجه الى الكاتب بعد هذا ما هي صلة ذلك بعدم قطعية ثبوت القرآن انهما قضيتان منفصلتان ، لا تمت احداهما الى الاخرى بصلة ، اللهم الاصلة واهية .. كما الح لها الاستاذ امين الخولي في تعليقه على كلام الكاتب ـ وهي شبهة ما اثير قديما من ان النسخ يلزمه البداء اي ظهور شيء كان خافيا على الله ، وتلك شبهة واهية ، وقد مل القول فيها كذلك وواضح رد القدماء عليها بأن النسخ لم يكن الا اتباعا لمصلحة الخلق لا تغيرا لعلم الله ، والشرائع انما قصد بها مصالح الناس الدينية والدنيوية ، فتبدلت الخطابات بحسب تبدل المصالح .

على انه كان يجب على الكاتب ان يقدر ان طوائف من المسلمين المتاخرين قد انكروا جواز النسخ ، وفسروا الآيات المقول بنسخها تفسيرا لا يتوقف على القول بالنسخ .

فعلى القول بوقوع النسخ فعلا في القرآن ، لا يظهر له تأثير في قطعية الثبوت وعلى القول بعدم جواز النسخ يسقط الايراد من اساسه .

وبعد هذا يبقى القول والسؤال للكاتب اين التناقض الذي كان هم المفسرين التخلص منه ؟ هذا ما لا يستطيع اثباته بعد هذا البيان .

والامر الذي لا يمكننا استيعابه وتوجيهه وجهة علمية ، اشارته الى ان تلك التناقضات ـ المزعومة ـ تصور لنا تدرج محمد (صلى الله عليه وسلم) في نبوته فانها تصور التدرج حقا ولكن اتدرج التشريع ام تدرج المشرع ؟ اما عمل المشرع فظاهر في تدرجه ولكن هل ذلك تدرج للنبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل يعتبر تدرج المعلم والمدرب والمروض والطبيب في العناية بمن يعلم او يدرب او يطبب صدى لتغيير في نفسه هو ؟ لا شك ان ذلك غير الواقع ، وهب ـ تساهلا ـ أن هذا المظهر يحتمل تدرج النبي وتدرج الشرع فكيف تحكم الكاتب وجعله مظهر تدرج النبي صلى الله عليه وسلم لا غير ؟ لا تدري اي اسلوب علمي يعتمد الكاتب في ذلك ، حتى يقرر ان التبديل يمثل ترقي النبي صلى الله عليه وسلم في نبوته ولا يمثل ترقيه في اعداد امته وتلطفه في تربيتها .

وبمجموع هذه الردود على الجهات الثلاث التي زعم Schacht انها توهن قطعية ثبوت القرآن . لا يبقى محل لدعواه ولا وجه علمي يقابل به ما اوردناه .

وهذه النظرة الاستشراقية تعطينا تصورهم للقرآن الكريم كمصدر تشريعي من حيث ثبوته ، فهو لم يثبت عندهم من قبل الله عز وجل ولم ينزل بصورة وحي منه تبارك وتعالى ، وانما هو محض ادعاء واختلاق من محمد صلى الله عليه وسلم تبلور من اتصالاته بمن حوله من اليهود والنصارى وغيرهم وساعد على ذلك حالته المرضية وعزلته الموحشة التي توهم من خلالها الوحي ، فرأى من واجبه تبليغ هذه الدعوة الى الناس .

وهذه افتراءات هشة ذكرها وحكاها القرآن على لسان اليهود والنصارى من قبل ورد عليها . ولسنا هنا في معرض مناقشة تلك الدعاوي وتفنيدها ، وانما المراد بيان اصل التصور ومنشؤه ، ويكفينا هنا القول بأن هذا التصور مردود من الناحية العلمية والتاريخية المجردة ، وكل ما ذكروه لا يشكل دليلا يستأهل النقاش ويصلح مستندا لاثبات الزعم .